صحارى مصر
ووسائل استغلالها

محاضرة حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون باشا

خاضت الجرائد المحلية منذ عهد قريب فى مسألة استغلال صحارى مصر والطريقة الأجدى التى يمكن بها أن يكون هذا الاستغلال أجدى وأنفع لمصلحة القطر المصرى من الوجهة الأقتصادية فلهذه الغاية وضعت هذه المحاضرة التى أتشرف بالقائها على مسامعكم الآن وهى :

تنقسم صحارى مصر إلى ثلاثة أقسام وهى :

(١) شبه جزيرة سينا (٢) صحراء العرب أو الصحراء الشروقية : (٣) صحراء لوبية أو الصحراء الغربية

أما القسمان الأولان فليس لدينا معلومات كافية عنهما تمكننا من أن نصدر رأياً باتاً بأحسن الطرق وأصلحها لاستغلالها استغلالا مجديا نافعاً غير ان ما نعرفه بصددهما من المعلومات العامة يدعونا إلى الاعتقاد بأنهما أكثر استعداداً للتعدين منهما للفلاحة

وهذا الحكم عليهما يستثنى منه القسم الوسط من شبه جزيرة سينا اذ يصلح لغرس مقادير وافرة من النخيل

أما صحراء لوبية فالجزء الواقع منها فى أراضى مصر يحده شمالا البحر الأبيض المتوسط وغربا برقه وجنوبا السودان وشرقاً وادى النيل وتبلغ مساحته ٦٦٣٫٣٠٠ كيلو متر مربع أو ١٥٧٫٨٩٤٫٠٠٠ فدان . وينبغى تقسيم هذا الجزء الى أربعة مناطق تبعاً لاختلاف طبيعة أرضه وذلك بالكيفية الآتية :

---

(١) تفضل حضرة صاحب السمو الامير الجليل عمر طوسون بالقاء هذه المحاضرة فى دار جمعية الاسعاف بالاسكندرية عن صحارى مصر ووسائل استغلالها . وقد سبق لسموه ان القاها فى المجمع العلمى بالقاهرة باللغة الفرنسية ولأهمية المحاضرة ننشر فيما يلى ترجمتها كما تلقيناها من دائرة سموه

المنطقة الأولى — الارض الممتدة فى شمال الترعة النوبارية وفى غربها إلى التلال التى عند اكنجى مربوط فى هذه الجهة الغربيـة وهذه الأرض يمكن ريها بواسطة الترعة النوبارية اذا مدت امتداداً كافياً . الا أنه لا يمكن ريهـا الا بالآلات الرافعة بسبب ارتفاعها وتربتها صالحة كثيراً لزرع الحبوب وأيضاً لغرس أشجار الفاكهة . وتقدر مساحتها بـ ٨٠٫٠٠٠ فدان

المنطقة الثانية — هى الأرض التى تبتدىء من الحد الغربى للمنطقة السالفة الذكر . ويتكون منها لسان عرضه زهاء ١٥ كيلو مترا . وهذا اللسان يمتد على طول البحر إلى حدود مصر الغربية وبما أن امتداد الساحل من الاسكندرية إلى السلوم يبلغ ٥٠٠ كيلو متر تقريباً فيكون اذن مسطح ذلك اللسان ٧٫٥٠٠ كيلو متر مربع تقريباً أى ١٫٧٨٥٫٠٠٠ فدان

والجزء الممتد من هذا اللسان مباشرة على شاطىء البحر فى الاستطاعة زرعه شعيراً على مياه الأمطار فى فصل الشتاء . ولكون هذه الأمطار تنزل فى العادة على الساحل ولا تبعد عنه كثيراً فمن غير الممكن البت فى امكان سقى كل هذا اللسان البالغ عرضه ١٥ كيلو مترا بواسطة مياه الأمطار سنويا . على أنه من الأمور المقطوع بهـا استنزال الأجزاء غير الصالحة للزراعة من هذا الجزء . ولكى يكون التقدير دون الحقيقة لا أكثر منها نرى أن فى الاستطاعة القول بان المساحة الممكن زرعها بهذه الوسيلة تبلغ ٥٠٠ ألف فدان وأن الذى يمكن زرعه سنويا جزء صغير . وذلك بسبب فقر الأهـالى فى هذه المنطقة وقلة عددهم الذى لا يكاد يبلغ ٤٠ ألف نسمة

وعلى كل حال لا توجد وسيلة أخرى لرى ما يزرع فى هذه المنطقة سوى ماء الأمطار . أما الأراضى المجاورة للصهاريج الرومانية القديمة فهذه تسقى بماء تلك الصهاريج ولا يتأتى ذلك الا اذا أزيلت الأتربة عنها وملئت بالماء فى السنين التى يكثر فيها تهاطل الأمطار . وعدد هذه الصهاريج يتجاوز الألفين وجميعها واقع فى هذه المنطقة وفى جنوبها

ويسع أكبرها ٥٠٠ ر ٤ متر مكعب من الماء . ومن واجب الحكومة أن توجه اليها عنايتها فتطهرها وترممها بدون إبطاء اذ أن هذه هى الوسيلة الوحيدة لاحياء هذه المنطقة وتعميرها ومتى تم اصلاح هذه الصهاريج وملئت بمياه الأمطار فى السنين التى يكثر فيها نزولها لا يستهلك الأهالى النازلون فى تلك الربوع الآن كميات المياه التى تخزن فيها فى عام واحد لأن عددهم فى هذه الأيام أقل منه فى السنين الماضية . فالبدء فى إصلاحها منذ الآن يعد من أجل النعم وأعظم الحسنات لأنه اذا جاءت سنة مطرها غزير يبقى فى تلك الصهاريج ماء للسنة التى تليها واذا توالت السنين الممطرة فان الأهالى يتخذون حولها مقراً ثابتاً يقطنون فيه ولا يرحلون عنها ويستعملون جانبا من هذا الماء فى فلاحة مزارع صغيرة واذا اتسع نطاق الزراعة بهذه الأسباب زادت الرطوبة ونشأ عن زيادتها تساقط الأمطار بكميات أوفر منها فى هذه الأيام وبذلك ترجع الحالة فى هذه الصحارى المقفرة الآن الى ما كانت عليه فى غابر الأزمان من الخصب والعمران

المنطقة الثالثة — يدخل فى هذه المنطقة الواحات كلها وهى وان كانت منفصلة عن بعضها بصحراوات شاسعة مترامية الأطراف إلا أنه ينبغى اعتبارها شيئاً واحداً نظراً لاتفاقها فى وضعها ومعدن أرضها والواحات كما لا يخفى بقاع خصبة مأهولة فى قلب صحراء لوبية وهى تشبه جزراً فى وسط أوقيانوس من الرمل اذ هى منعزلة عن ديار مصر المأهولة بصحارى مقفرة قاحلة جففها وهج الشمس وأشعتها المضطرمة .

وتقع كافة الواحات فى منخفضات من الأرض . وهذا الامر هو الذى صيرها صالحة للسكنى والفلاحة لان منسوب سطح تربتها المنحط عما حوله من الاراضى بنحو ٢٠٠ أو ٣٠٠ متر جعلها قريبة من الطبقة المائية التى تحت الارض وسهل توصيل الماء إلى سطحها من أغوارها القريبة وعيونها المنبجسة . وقد تتجاوز أغوارها مع هذا الأنخفاض ١٠٠ متر وبذا يستطيع المرء أن يدرك السر الذى من أجله لا يمكن وجود هذه الواحات الا فى المنخفضات .

ولقد كان راسخاً فى الأذهان ان هذه الطبقة المائية التى تحت الارض من نز النيل

ورشحه لكن الدكتور (بول) مدير مساحة الصحراء العام أبان بطريقة علمية خطل هذه الفكرة . لانه وجد ان المناسيب التى أخذها من مختلف الينابيع فى صحراء لوبية تزيد فى الارتفاع عن مناسيب النقط المقابلة لها فى النيل والواقعة معها على درجة عرض واحدة . ومن ذلك استنتج ان ماء هذه الطبقة لا بد أن يكون آتيا من اتجاه جنوبى غربى .

ولنضرب لك مثلا آخر ذلك أن قرية البويطى التابعة للواحات البحرية قائمة على ارتفاع ١١٣ مترا فوق سطح البحر ومع هذا ينبع فيها ماء الطبقة الارضية . فى حين أنه عند المنية الواقعة على خط عرض هذه القرية لم تبلغ نهايته فيضان النيل فى عام ١٩٢٩ أكثر من ٤٠ متراً فوق سطح البحر. واذن يرى أنه من المستحيل أن تكون الطبقة المائية التى فى الواحات آتية من النيل رأسا .

و ينبغى قسمة الواحات إلى قسمين — مأهولة وغير مأهولة . وهذه الأخيرة وان كانت الآن خالية من السكان الا أنها كانت قديما مأهولة والاطلال الباقية بها والينابيع المهجورة كلاهما دليل ساطع على صحة هذه النظرية . و يبدو ان السبب فى اخلائها نقص السكان فيها ونزوح من بقى منهم إلى المواضع الاكثر خصبا وسهولة اتصال بباقى القطر واليك الواحات المأهولة مرتبة بحسب أهميتها : —

الواحات	مساحتها المزروعة	مساحتها القابلة للزراعة
الداخلة	٢٥ر٥٠٠ فدان	٢٥ر٠٠٠ فدان
الخارجة	٤ر٣٥٠ »	٢٠ر٠٠٠ »
البحرية	١ر٠٠٠ »	١٠ر٠٠٠ »
سيوه	١ر٠٠٠ »	١٠ر٠٠٠ »
الفرافره	١٥٠ »	١ر٠٠٠ »
	٣٢ر٠٠٠ فدان	٦٦ر٠٠٠ فدان

ومن الجائز أن يكون فى حكم المستطاع زيادة المسطحات القابلة للزراعة المبينة امام

كل واحة الا انه يجب أيضا ملاحظة أن المياه التى تحت سطح الأرض يتعذر علينا الاحاطة بمقاديرها ونوعها ، ولهذا السبب لا يتيسر للمرء أن يزيد هذه الارقام ويكون مع هذه الزيادة محتاطا فى التقدير

والواحات غير المأهولة فى عصرنا هذا هى سترة والعرج والدالة والبحرين وأبو منقار وفى كل واحدة من هذه الواحات يمكن بسهولة زراعة ٢٠٠٠ فدان وفى ذلك يكون ما يزرع من هذه الواحات ١٠٫٠٠٠ فدان . وبضمه الى المساحة المأهولة يكون المجموع ١٠٨ آلاف فدان وأيضاً فى وادى النطرون يمكن غرس عدد وفير من النخيل على الجفاف فى مساحات واسعة بالطريقة المتبعة فى أبى قير وأدكو ورشيد أما ما يوجد من النطرون فى هذه المنطقة فنكتفى بالتنويه به هنا للفت الانظار إليه .

المنطقة الرابعة — لقد سبق القول ان مجموع مساحة صحراء لوبية الواقعة فى أرض مصر يبلغ ٦٦٣٫٣٠٠ كيلو متر مربع أو ١٥٧٫٨٩٤٫٠٠٠ فدان . ويجب علينا أن نستنزل من هذا المقدار الأجزاء المزروعة والقابلة للزراعة فى المناطق السالف ذكرها وهى : —

المنطقة الأولى ٨٠٫٠٠٠ فدان والمنطقة الثانية ٥٠٠٫٠٠٠ فدان والمنطقة الثالثة ١٠٨٫٠٠٠ فدان

فيكون مجموع ذلك ٦٨٨٫٠٠٠ فدان

وإذا قدرنا ٧٠٠٫٠٠٠ فدان بصرف النظر عن الكسور واستنزلنا هذه المساحة من مساحة صحراء لوبية الواقع فيها هذه الأفدنة كان الباقى ١٥٧٫٢٠٦٫٠٠٠ فدان . وهذا المسطح الهائل مقضى عليه قضاء مبرما أن يظل عقيما طالما كانت حالته الجوية باقية على ما هى عليه نعنى ما دام المطر منقطعاً عنه . لأنه بسبب ارتفاعه وعدم استواء أرضه لا يمكن الاستفادة من أرضه بدون معاونة الغيث الذى ترتب على عدم نزوله هذا الجدب . ومع ذلك فان الحكومة آخذة الآن فى درس مشروع خطير وهام جداً وهذا المشروع تنجم عنه فوائد جمة للقطر بأجمعه ومنافع عظمى لجزء من تلك الاصقاع

المترامية الأطراف . ونعنى بهذا المشروع (مشروع منخفض القطارة) . واننا لا ندعى الأحاطة بوصف هذا المشروع الذى قام بوصفه وصفاً متقناً محكماً عالمان فاضلان أكثر منا دراية به واخصاء فيه وهما صاحب السعادة النابغة حسين سرى بك وكيل وزارة الأشغال العمومية والدكتور الفاضل مستر بول المدير العام لمصلحة مساحة الصحراء وهو أول من فكر فى هذا المشروع وأبرزه الى حيز الوجود . فاقدامنا بعدهما على شرحه لا يكون الا من قبيل الاعتداد بالنفس والادعاء بغير حق الذى نبرأ بنفسنا عنه ولذلك لا ينبغى لنا أكثر من التكلم عنه اجمالا فنقول :

هذا المنخفض عبارة عن وهاد واسعة شاسعة فى صحراء لوبية سطحها يساوى منسوب سطح البحر ويبلغ ١٩ر٥٠٠ كيلو متر مربع أى ٤ر٦٤١ ٠٠٠ فدان . وأحط موضع فيه منسوبه ١٣٤ متراً تحت سطح البحر . وهذا الموضع المنحط هو أسفل نقطة فى سائر أراضى قارة أفريقية على ما يظهر .

والمشروع المذكور يقصد به توصيل مياه البحر إلى هذا المنخفض بواسطة حفر ترعة طولها ٦٦ كيلو متراً بحيث يكون ٢٠ كيلو متر منها قناة مكشوفة والستة والأربعون كيلو متراً الباقية نفقاً على أن يكون الماء فى هذه الترعة أو البحيرة المترامية الأطراف على منسوب ٥٠ متراً تحت سطح البحر حتى يمكن استخدام الفرق فى المنسوب فى إدارة الدولاب الذى سيولد القوة الكهربائية المطلوبة للقطر .

وعند ما يصل الماء إلى المنسوب المذكور يكون مسطح البحيرة ٥٠٠ ر١٣ كيلو متر مربع أو ٠٠٠ر٢١٣ ر٣ فدان

وفوق ما سيجنيه القطر من هذه القوة المحركة فان تلك الأصقاع المقفرة تكتسب الفوائد الآتية :

١ — طروء تغيير فى حالة الجو بسبب وجود هذه الطبقة المائية الهائلة التى سيكون من مستلزماتها تزايد الأمطار فى القسم الواقع بين هذه البحيرة والبحر وفى المنطقة التى تكتنف البحيرة . والفائدة من ذلك معروفة مقطوع بها .

٢ — ارتفاع الطبقة المائيــة فى المنطقة الواقعة جنوب البحيرة فتكون النتيجة اقتراب هذه الطبقة من سطح الأرض فيصير فى حيز الامكان استخدامها فى الجهات المنخفضة التى يسهل استخدامها فيها .

هذا هو مجمل هذا المشروع الجسيم وهذه هى الفوائد والمنافع التى تجنى من ورائه

الخلاصة — ويتنتج مما تقدم أن القسم الذى يمكن الاستفادة منه من مساحة صحراء لوبية هو جزء ضئيل من هذه الصحراء الشاسعة المترامية الأطراف حتى أن هذا الجزء الصغير نفسه مقضى على القسم الأكبر منه أن يظل قاحلا غير مثمر ذلك لعدم وجود الوسائل المؤدية إلى استثماره ووسائل استثماره غير قاصرة على الحصول على الأرض والماء ، بل لا بد أيضاً من اليــد العاملة . ولرب سائل يسأل . وأين توجد هذه اليد والجواب على ذلك أنه ورد فى الاحصاء الأخير الذى عمل فى سنة ١٩٢٧ أنه يوجد فى المنطقة الأولى والثانية المزروعتين والبالغ مسطحهما ٥٨٠ ألف فدان ٨٣٨ر٣٨ نسمة ومن المحقق أن ثمانين ألف فدان التى فى المنطقة الأولى من هاتين المنطقتين هى فى حالة تستدعى القيام بأعمال للرى لايجاد الماء بها . غير أن الحكومة لا تستطيع مباشرة هذه الأعمال قبل أن تتأكد من الحصول على اليــد العاملة لفلاحتها . وفى منطقة الواحات الثالثة حيث يوجد المــاء والأرض لا يزرع الأهالى الذين بها الآن سوى ما يستطيعون فلاحته . لأنهم لو كانوا يستطيعون زراعة مساحة أوسع من المساحة المزروعة لما تأخروا عن ذلك لأنه ليس أمامهم ما يعوقهم . وعلى هــذا لا بد من بقاء جميع هذه الأراضى بحالتها الراهنــة إلى أن يزدحم وادى النيل بسكانه لدرجة تدعو الزائدين فيه من السكان الى الرحيل واتخاذ مقر لهم فى تلك النواحى لأنه من غير المنتظر أن يبارح هؤلاء السكان من أنفسهم جهاتهم طالما وجدوا فيها نعمة العيش أو يخاطروا بالذهاب إلى نواح أخرى و بما أنه لم يزل يوجد إلى الآن فى وادى النيل كثير من المراكز به من السكان عدد أقل مما يجب أن يكون فلا بد من مرور زمن قبل أن تعمر هذه الأراضى .

الاعمال التى يجب البدء بها — غير أن هـذا ليس معناه أنه يجب على الحـكومة أن تظل مكتوفة الايدى لا تبدى حراكا فى الوقت الحاضر بل عليها أن تبدأ باعمال تحضيرية يتعين القيام بها منذ الآن لـكى تحدث تحسيناً من الوجهات الاجتماعية والمـادية والصحية فى حالة أهالى تلك الارجاء الذين اعتادوا القعود . لأنه لا ينبغى فقط الاعتماد على المهاجرة المزمع حـدوثها مع توالى الأيام والتى لن يكون حدوثها فى القريب العاجل كما ذكرنا ذلك قبلا بل من المحتم الذى لا مفر منه الدأب على عمل ما فيه راحة أهالى تلك النواحى ورفاهيتهم واتخاذ التدابير اللازمة لتقوية اجسامهم وانماء عددهم كما هو الحاصل عند أهل وطنهم سكان وادى النيل وليس لدينا هنا وسيلة خير من ان نعرض أول احصاء عمل فى مصر عام ١٨٨٢ واخر احصاء عمل فيها عام ١٩٢٧ وان نقارن بين الواحات وباقى القطر فيهما .

واليك ما انتجته هذه المقارنة :

	عام ١٨٨٢	عام ١٩٢٧	الزيادة	النسبة
مصر	٦ر٨٠٦ر٣٨١	١٤ر١٩٧ر٨٦٤	٧ر٣٩١ر٤٦٣	١٠٨ فى المائة
الداخلة	١٥ر٢٩٣	١٦ر٨٠٩	١ر٦٩٦	١٠ »
الخارجة	٦ر١٦٦	٨ر٥٨٧	٢ر٤٢١	٣٩ »
البحرية والفرافرة	٥ر٨٨٢	٦ر٣٢٣	٤٤١	٨ »
سيوه	٣ر٣٤٦	٣ر٧٩٥	٤٤٩	١٣ »
المجموع	٣٠ر٦٨٧	٣٥ر٥١٤	٥٠٠٧	المتوسط ١٦٪

واذا قارنا النسبة المئوية للزيادة التى نشأت فى عدد السكان فى الواحات فى المدة الواقعة بين احصاء عام ١٨٨٢ واحصاء عام ١٩٢٧ بنسبة زيادة باقى القطر نرى فرقا جسيما . والسبب فى ذلك جلى ظاهر لا يحتاج إلى بحث وعناء . ذلك ان طريقة معيشة

أهالى الواحات تختلف اختلافا بينا عن معيشة سكان وادى النيل . اذ بينما سكان هذا الوادى يرتعون فى بحبوحة من العيش ومتوافر لديهم الشروط الصحية التى وان كانت لم تبلغ بعد درجة الكمال الا انها لا يمكن مقارنتها بالاحوال التى بالواحات نرى أولئك يعيشون فى فقر مدقع وأحوال صحية يرثى لها. ومما يزيد سوء هذه الاحوال توطن الملاريا هناك فى أشهر الصيف من كل سنة . واذا أضفنا إلى ذلك سوء التغذية الذى يزيد وطأة هذا المرض ويجعل له فى الاجسام مرعى خصيباً أمكننا أن ندرك بسرعة السبب الذى من أجله لا ينمو عدد سكان الواحات بالقدر الذى ينمو به سكان وادى النيل وفهمنا السر فى هذا الفرق الجسيم بينهما فى نسبة الزيادة المئوية ولماذا لا يستطيع أهالى هذه الواحات الضعاف البنية أن يأتوا بمقدار من العمل يضارع ما يأتى به سائر المصريين حتى يمكنهم التمتع بالثروة والرفاهية التى يتمتع بها هؤلاء .

و ينحصر اذن واجب الحكومة نحو هؤلاء السكان فى درء ضررين هما الامراض والفقر .

أما الضرر الأول وهو الامراض فهذا ليس فى وسعنا الخوض فى معالجته خصوصاً بعد ما فكرت الحكومة فى هذا الامر وأرسلت عدة بعثات طبية بقصد فحص الامراض وايجاد الوسائل اللازمة لمقاومتها . ولذا ندع الكلام فى شأنه لمن هم أكثر خبرة منا فى هذا الامر ليبينوا ما هى التدابير المؤدية إلى درئه .

وأما الفقر وهو الفرع الذى عزمنا أن نأخذ على عاتقنا الكلام فيه فنقول أن اميال الحكومة واستعدادها لتلافيه حسنة جداً . غير أنها مع الأسف لم تفعل إلى الآن شيئاً من شأنه حل هذا الاشكال بطريقة عملية. والذى قامت به إلى الآن لا يتعدى أرسال لجان وموظفين اخصائيين فى مختلف الشؤون ابتغاء دراسة الزراعة وغرس أشجار الفاكهة أو ادخال أشياء مفيدة مثل تربية النحل ودودة القز وحفظ الفاكهة وغير ذلك . وكل هذا مفيد لا بأس به غير أنه لا يزيد عن كونه نفقات ومشقات مقضى عليها بأن تظل عقيمة لا يستفيد منها سكان تلك النواحى فائدة طالما بقيت طرق مواصلاتها مع بقية القطر على ما هى عليه الآن بدون أن تدخل عليها تحسينات. وهذه

حالة ينطبق عليها تماما المثل الفرنسى الذى يقول فى وصف من يعمل عملا غير مجد انه يبتدئه من حيث يجب أن ينتهى منه . وهـذا المثل هو قولهم فلان يضع المحراث أمام الثيران .

أما ما كان يلزم عمله قبل كل شىء فهو ايجاد طرق للمواصلات السريعة ممهدة لاتصال الواحات بباقى القطر . فمتى وجدت هذه الطرق دب العمران فيها ونما من تلقاء نفسه . أما فى أيامنا هـذه حيث المواصـلات صعبة فتستغرق نفقات النقل معظم ثمن الحاصلات فلا يبقى منه الا الشىء الزهيد التافه وفوق هـذا فان جميع الحاجات تجلب لها بأثمان باهظة لمـا يتطلبه هذا النقل نفسه من النفقات . وما فائدة استخراج الذهب وهو أثمن معدن فى العالم من ناحية من النواحى اذا كانت نفقات نقل هذا الذهب تستغرق معظم ثمنه .

ولقد عاينا عند زيارتنا للواحات البحرية أن البرتقال والليمون الحلو اللذان ينتجان منها واللذين يفوقان فى جودتهما برتقال وادى النيل وليمونه يباعان هناك كل ١٠ و١٢ بقرش وذلك مدة أقامتنا . وفى يوم سفرنا اشتراهما رجال حاشيتنا كل ٢٠ و٢٥ بقرش. وبهذا المثال الصغير تظهر لك الحالة الاقتصادية المحزنة التى يكابد مرارتها سكانها التعساء

ويدل على فائدة المواصلات من جهة أخرى ما بيناه من نسبة زيادة الأهالى المئوية التى حدثت فى المدة الواقعة بين احصـاء عام ١٨٨٢ وأحصاء عام ١٩٢٧ . فقد حصلنا من ذلك على النتيجة الآتية المرتبة بحسب الاهمية :—

(١) الخارجة ٣٩ فى المائة — (٢) سيوه ١٣ فى المائة — (٣) الداخلة ١٠ فى المائة — (٤) البحرية والفرافرة ٨ فى المائة :—

فهذه النسب دليل واضح على النتيجة الحسنة التى يمكن الحصول عليها من وجود طرق حسنة للمواصلات . فالخارجة انما كانت فى مقدمة الواحات الاخرى ومتفوقة عليها كثيرا من هذه الناحية لاتصالها بوادى النيل بسكة حديدية . وسيوه تليها فى التقدم مع فرق لا يستهان به لان طرق مواصلاتها أصلح من طرق الواحات الباقية . ويأتى

بعد ذلك فى الترتيب الواحتان الاخيرتان لأن مواصلاتهما من أسوأ المواصلات . ولرب معترض يقول أن سكان الواحات الأخرى يمكن أن يكونوا قد زادوا بنسبة سكان الخارجة ولكنهم هجروا ديارهم ورحلوا . فجوابنا انه اذا رحل سكان ناحية عنها للبحث عن العيش فى مواضع أخرى فهذا لا يدل الا على الحالة الاقتصادية التعسة السائدة فى تلك الناحية واذا كان فى استطاعة طريق مواصلة حسن كالذى فى الخارجة أن يحجزهم فى بلدهم فذلك دليل ساطع على أنهم يستطيعون أن يجدوا فيه العيش أطيب من بلد سواه و ببقائهم فيه ينشرون العمران والرفاهية فى ربوعه .

ومما سبق أيضاحه يرى أن أول شىء يجب على الحكومة مباشرته هوانشاءطريق حسنة للمواصلات مع الواحات . وينبغى على مانرى أن تكون هذه الطرق ممهدة صالحة لسير السيارات وهذه الوسيلة أحسن الوسائل من الوجهة العلمية والاقتصادية . ومتى تم انشاء هذه الطرق يبيع الاهالى حاصلاتهم بأثمان تربو على الأثمان التى تباع بها الآن و يشترون حاجاتهم بأثمان أرخص من الأثمان الحالية وعندئذ يكون الفرق فى هاتين العمليتين عملية البيع وعملية الشراء أكثر من الفرق الذى يحصلون عليه فى الوقت الحاضر . فيستعملون ذلك الفرق الذى هو بمثابة ارباح لهم فى تحسين أغذيتهم وملابسهم وتقوية اجسامهم التى انهكها فى أيامنا هذه الحرمان وقلة الغذا و بهذا يستطيعون أن يقوموا باشغال يربو قدرها على ما يقومون به الآن . ولايخفى ما فى ذلك أيضا من الفائدة لهم . ومتى تقوت تلك الاجسام يتيسر لها أن تقاوم الأمراض بشدة ذلك الامر الذى لا تستطيعه الآن وهى على ماهى عليه من الهزال . فلا ينبغى للحكومة أن تفكر فى الاعمال التى تباشرها اليوم الا بعد انشاء طرق المواصلات هذه فانها فضلا عما فيها من المنافع التى ابناها سيكون من منافعها تسهيل الهجرة الى تلك الاصقاع فى مقتبل الايام

الواحات فى العصور الغابرة — لا يرتاب أحد فى ان الواحات كانت فى قديم الزمان أعمر مما هى عليه الآن . وليس أدل على ذلك اكثر من الأراضى البور والعيون

المهجورة التى نشاهدها فى أيامنا هذه وعمرانها القديم كان آتياً من كثرة عدد الاهالى الذين كانوا قاطنين بها اذ كان عددهم فى تلك الازمان يربو على عددهم فى الوقت الحاضر . والفضل فى ذلك يرجع إلى مصر التى كانت فى تلك الاحقاب مستبحرة العمران ويلوح لنا أن هـذا العمران دام زمناً طويلا مع أخذه فى التقهقر شيئا فشيئا حتى عهد حكم العرب لاننا اذا أخـذنا بأقوال المؤلفين من العرب نجد ان ايرادات الواحات التى دونوها فى مؤلفاتهم تزيد عن ايراداتها الآن واليك ما ذكروه : —

قال ابن الجيعان وهو من أهل القرن الثامن الهجرى الموافق للقرن الرابع عشر الميلادى فى كتابه (التحفة السنية) بالصفحة رقم ١٣٨ :

«سنتريه» أى سيوه — بالوجه الغربى من ثغر الاسكندرية عبرتها ٥٠٠٠ دينار اه

وهذا المبلغ يساوى الآن ثلاثة آلاف جنيه .

وايرادها فى أيامنا الحالية ثمانمائة جنيه فقط ومع هذا فهو ايراد اسمى لان الحكومة كثيراً ما تتنازل عنه لعدم قدرة سكانها على دفعه لما هم فيه من الفقر المدقع

ونقل المقريزى فى خططه ج ١ ص ٨٧ عن مياومات القاضى الفاضل فى سنة ٥٨٥ هـ الموافقة لسنة ١١٨٩ م فى عهد السلطان صلاح الدين الايوبى :

ان ايرادات الواحات الثلاث — الداخلة والخارجة والبحرية — خمسة وعشرون الف دينار (١٥٠٠٠ جنيه)

وقال ابن الجيعان فى كتابه السابق ص ١٧٣ :

« واحات » — وعدتها خمسون ناحية عبرتها ٥٤٠٠٠ دينار (٣٢٤٠٠ جنيه مصرى) كانت باسم الامير ملكتمر عبدالله الصفوى والآن للديوان الشريف المفرد السلطانى اه

أى أن ذلك كان فى عهده فى القرن الثامن الهجرى وتراه هنا قد ذكر الايراد جملة واحدة للواحات الثلاث .

وقد وافقه ابن دقماق وهو من أهل القرن التاسع الهجرى الموافق للقرن الخامس

عشر الميلادى فى كتابه (الانتصار لواسطة عقد الامصار) ج ٥ ص١١ فى ذكر جملة هذا الايراد ثم فصله كما يأتى :

١ — الداخلة ٢٩٫٠٠٠ دينار ١٧٠٠٠ جنيه مصرى وهى الآن ١٢٠٠ جنيه

٢ — الخارجة ١٢٫٠٠٠ دينار ٧٢٠٠ جنيه وهى الآن ٥٠٠ جنيه

٣ — البحرية ١٣٫٠٠٠ دينار ٧٫٨٠٠ جنيه وهى الان ٥٥٠ جنيه

وكانت تجارة معدن الشب ذات سوق رائجة فى هـذه الواحات حتى أواسط عصر الاسلام

قال ابن مماتى وهو من أهل القرن السادس الهجرى الموافق للقرن الثانى عشر الميلادى فى كتابه (قوانين الدواوين) ص ٢٣ ما ملخصه :

« ان معدن الشب كان ينقله العرب من الواحات الداخله والخارجة الى ساحل قوص وأخميم وسيوط ومن الواح البحرية الى البهنسا وكان الديوان محتكرا له . وكان ينقل من هذه الجهات بطريق النيل الى الاسكندرية عند ما يجرى الماء فى ترعتها أى فى فصل الفيضان دون غيرها من مدن السواحل كدمياط وتنيس فتأتى الاجانب لشرائه والمقدار المبيع منه سنويا ١٢٫٠٠٠ قنطار (٥٤٠ طناً) غير ان هذا المقدار كان على أى حال راجعا الى نشاط العمال . أما ثمن القنطار فكان بين أربعة دنانير (٢٤٠ قرشاً) وستة دنانير (٣٦٠ قرشا) أو ٦٦ جنيها للطن الواحد »

وقد ورد الى مصر من الخارج فى العام الماضى ١٨٠٠ طن من الشب و بيع الطن بستة جنيهات ونصف .

ويبدو لنا أن الدين الاسلامى دخل الى الواحات منذ زمن غير بعيد اللهم الا واحة سيوة فان اسلام أهلها كان أسبق . فقد ذكر أبو عبيد البكرى وهو من أهل القرن الخامس الهجرى الموافق للقرن الحادى عشر الميلادى فى كتابه(المسالك والممالك) ص ١٤ وما يليها ان كل سكان واحة الفرافرة من الاقباط المسيحيين

وقال فى موضع آخر من هذا الكتاب أن رجلا من أهل صفاقص يقال له محمد ابن سعيد الازدى وجد سكان واح البهنسا (البحرية) خليطا من العرب المسلمين والقبط المسيحيين ورآهم يوم عيد النصارى يحتفلون بتابوت يجرونه على عجله و يطوفون به فى الطرق وكان فى التابوت جثة يزعمون أنها جثة تلميذ من تلاميذ المسيح وكانوا يعتقدون انهم بعمل هذا الموكب تحل عليهم السعادة الربانية و يستوجبون النعم الالهية وكانت تجر العجلة ثيران . والاماكن التى تتجنبها الثيران يعدونها نجسة .

وقال أبوصالح الارمنى فى كتابه (الكنائس أو اخبار نواحى مصر) ص ١٨ ما ملخصه انه فى عهد الحافظ لدين الله وهو ثامن الخلفاء الفاطميين وكانت خلافته من سنة ٥٢٤ هـ الى سنة ٥٤٤ هـ (١١٣٠ م — ١١٤٩ م) كانت واح البهنسا بها بيعة باسم القديس مارى جرجس وكانوا يستخرجون جثته من تابوته يوم عيد استشهاده ويجددون عليها كسوة اخرى و يطوفون بها فى البلد جميعه بالشمع والصلبان والقراءة ثم يعاد الى البيعة بعد الاحتفال الى ان قال (دير الابرص فى الواح)

وقال ابن دقماق فى كتابه السابق ج ٥ ص ١٢ بقرية قلمون بالواح الداخلة كنيسة للنصارى

و يستفاد مما سبق أن اقليم الواحات كان آخر جهة دخلها الدين الاسلامى من القطر المصرى لانه إلى القرن الخامس الهجرى الموافق للقرن الحادى عشر الميلادى كانت واحة الفرافرة وهى أبعد الواحات عن القطر لم تزل تدين بالنصرانية .

واذا ذكرنا هذه البيانات فما ذلك الا لأنه من المستغرب أن يشاهد الانسان الان أهل هذه الواحات من أشد المسلمين تمسكا بدينهم حتى لا يوجد اليوم بواحة الفرافرة كلب واحد لانه يعد فى أحد المذاهب الاسلامية نجساً كما لا يوجد بينهم شخص يدخن لان ذلك يعد عندهم اثما

النفيجة — و يستخلص مما سبق أن الواحات كانت أكثر عمراناً فى الأزمان

السالفة منها اليوم ويلزم لرجوع العمران والرفاهية إلى ربوعها أن يتوافر فيها شيئان ضروريان لها الآن وهما : ١ — ازدياد عدد السكان ٢ — تحسين طرق المواصلات

والأمر الأول يصعب تنفيذه وينبغى تفويض تحقيقه للزمن . غير أنه يجب تشجيعه من الحكومة بما تقوم به من الوسائط المهيئة له . ويستطيع المرء أن يقول أنه لا يتحقق الا بتحقق الأمر الثانى وأرقام الاحصائيات المختلفة من أعظم البراهين على ذلك

أما الأمر الثانى فهو الأهم وتنفيذه من واجبات الحكومة إذ لا جدال فى أن وسائل النقل التى تربط هذه الواحات بباقى القطر هى ذات الوسائل التى كانت مستخدمة من عدة قرون أى من مدة ما كانت الواحات عامرة . أما التى كانت تربط القطر بالبلاد الاجنبية فقد تغيرت اذ كان الانسان يلزمه لقطع المسافة من مرسيليا الى الاسكندرية شهر واليوم تكفيه اربعة أيام لقطعها بالبواخر ولا يحتاج الا الى بعض ساعات لقطعها بالطيارة

واذا اعدت وسائل النقل السريع فى المواصلات بيننا و بين الواحات وهى فى متناول أيدينا الآن كان فى الامكان استيراد بعض الحاصلات التى تأتى من الخارج من الواحات وهذا أمر لاشك فى نفعه وفائدته لان الواحات جزء من مصر والحاصلات التى تأتينا منها لاتختلف فى نوعها عن الحاصلات التى تأتينا من الخارج . والدليل المبين على صحة ماذكرنا ثمن البرتقال والليمون الحلو اللذين تكلمنا عنهما سابقا والبلح الذى هو أهم حاصلات هذه الواحات ولكنه مع هذا لايزال البلح التونسى يزاحمه لأن الطريق أمامه بعيدة لوصوله الينا دون الثانى

ولقد تلونا فى عدد أول نوفمبر من سنة ٩٣١ من مجلة العالمين نبذة عنوانها (وادى النيجر وسكة حديد الصحراء) ووجدنا فى هذه النبذة مايؤيد آراءنا تأييداً تاما ويحقق المنافع التى يمكن ان تعود على النواحى المهجورة من طريق المواصلات الحسنة وهاك ترجمة ماقرأناه :

ان انشاء السكة الحديدية فى الطرف الشرقى لحدود الجزائر من ناحية الصحراء سهل المواصلات بين ناحية توجورت جنوب بسكره وواحات غرب ارير التى تستمد

الماء من طبقات مائية تحت الارض والتى تنتج أصنافا عدة من البلح الفاخر (وهذه حالة واحاتنا تماما) وكانت هذه الواحات قبل احتلالنا تدب فى ربوعها عوامل الموت ببطء بسبب نضوب طبقات الماء الذى كان ينتفع به شيئا فشيئا ولقد نجم عن وجود السكة الحديدية تسهيل استحضار آلات صالحة لثقب الارض فأمكن الوصول الى طبقات مائية أبعد غورا وحفر آبار جديدة . وكانت النتيجة أن أصبحت هذه الواحات تصدر مقداراً من البلح قدره تسعون ألف قنطار وهذه الكمية تساوى من عشرين مليون الى خمسة وعشرين مليون فرنك وبذلك شبعت بطون شعب كانت خاوية وعمرت تلك الناحية وأخذ عدد السكان يزداد باطراد .

وهذه الجملة الأخيرة هى التى استوقفت نظرى لأن هذه هى النتيجة التى لابد منها من وراء مواصلات طريق حسنة . واننا لا نريد مع ذلك العمل لتنفيذ كل ما جاء فى كل هذه النبذة تماما بل بالعكس نحذر الحكومة مما عسى أن يخالجها من الميل الى حفر آبار جديدة كما حصل فى واحات الجزائر لأن هذه لها أحوال تختلف عن أحوال واحاتنا التى جهزها القدماء بطريقة عجيبة تنطبق على علم تجربة الماء ورفعه انطباقا تاما وزودوها باعمال صناعية تستوقف النظر والذى يلزم عمله هو فقط تطهير الآبار القديمة ووضع أنابيب لها وعدم مباشرة أى عمل جديد الى أن تدعو الضرورة لذلك لأنه حدث من عدة سنين انهم أخذوا يتلهون بثقب آبار جديدة فى الداخلة التى هى أزهى واحاتنا وأكبرها فى أراض منسوبها اكثر انخفاضا من الاراضى التى بها الآبار القديمة فنتج عن ذلك ان الآبار الجديدة نبع منها ماء كثير بينما انخفض منسوب ماء الآبار القديمة فنضبت وجفت الزراعة التى كانت تسقى بها

واذا عرفنا ان الابار القديمة كانت تقوم بحاجة شعب يزيد عدده كثيراً عن الشعب القاطن بها الان سهل علينا التريث الى الوقت الذى يبلغ فيه عدد الاهالى الحاليين عددهم فى الزمن القديم و بعد ذلك نبحث عن اسلم الطرق لحفر آبار أخرى

واننا قبل أن نختتم هذه المحاضرة نكرر القول ونعيده بان على الحكومة أن توجه كل انظارهـا الى انشاء طرق للمواصلات صالحة تتفق مع وسائل النقل الحديث السريعة التى أوصلنا اليها العلم والصناعة . ومتى تم ذلك ترجع الواحات من نفسها الى ما كانت عليه من العمران والرفاهية فى الزمن الماضى وتصبح آهلة بسكان ينعمون برغد العيش ورفاهية الحياة .